الفصل الأول

أفلاطون
(٤٢٧-٣٤٨ ق.م)

أفلاطون

• ١- البيئة التي نشأ فيها أفلاطون:

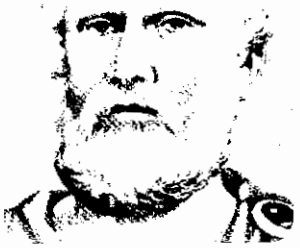

إذا نظرنا إلى خريطة أوروبا سنجد أن اليونان تشبه قبضة اليد الممتدة داخل البحر الأبيض المتوسط. وإلى الجنوب منه تقع جزر كريت الكبرى. وعن طريقها حصلت قبضة اليد تلك على مبادئ الحضارة والمدنية في القرن الثاني قبل الميلاد. وإلى الشرق منها يقع بحر إيجه وآسيا الصغرى الهادئة والجامدة حتى الآن. وإلى الغرب نجد أيونيا وإيطاليا، ثم صقلية وأسبانيا. وفي نهاية اليابسة تقع أعمدة هرقل (نسميها الآن جبل طارق). وهي بوابة بحرية معتمة لم يجرؤ كثير من البحارة اجتيازها إلى وقت قريب. وإلى الشمال تقع بلاد شبه بربرية ونصف متحضرة سميت بعد ذلك باسم "مقدونيا".

انظر إلى الخريطة مرة أخرى، ستجد أن تضاريسها كثيرة لا تحصى، فالسواحل والبحار والخلجان والسهول والجبال والهضاب في كل مكان. وقد أدى ذلك إلى وجود عوائق طبيعية تقسم الدولة وتعزلها. وكان السفر والتنقل في تلك الأيام صعب وخطير جدًا إذا ما قورن بعصرنا الحالي. لذلك فقد كان على كل واد في اليونان أن يكتفي ذاتيًا من الناحية الاقتصادية وأن تكون له حكومته وطريقة حكمه ودينه وحضارته. كما نشأت المدن اليونانية في الأقاليم المتعددة على نفس الطريقة، فعلى هذا النمط نشأت اسبارطه وأثينا وغيرها من المدن اليونانية.

انظر إلى الخريطة مرة أخيرة، ستجد أن أثينا هي أبعد المدن اليونانية جهة الشرق. أي أنها بوابة اليونانيين إلى الشرق وآسيا الصغرى، كما أنها مدخل الحضارة والترف إلى اليونان. وكانت أثينا ذات ميناء كبير تأوي إليه الكثير من السفن هربًا من البحر الهائج، وكان لها أسطول بحري كبير.

وفي الفترة ٤٩٠-٤٧٠ ق.م توحدت أثينا واسبارطة ونسيا ما كان بينهما من منافسة، كما توحدت جيوشهما لمحاربة الفرس، وكانت اليونان تحت حكم "داريوس" الذي أراد تحويل اليونان إلى إمبراطورية. وكان التكامل ملحوظًا فقدمت اسبارطه الجيش وأثينا الميناء. لكن عند انتهاء الحرب وتسريح الجيوش، عانت اسبارطه من المشاكل الاقتصادية التي سببتها الحرب، فعادت إلى عزلتها الزراعية.

وفي أثينا تحول الأسطول الحربي إلى أسطول تجاري، فحفلت بكثير من الأجناس القادمين من أنحاء العالم الذين حملوا معهم مشكلاتهم وأفكارهم وعاداتهم ومذاهبهم. لكن وجود كثرة العقائد يؤدي إلى الشك في جميع العقائد. أو بمعنى أوضح، فإن كثرة المذاهب والعقائد وتضاربها يولد الشك فيها جميعًا. وربما كان التجار أول من مر بهذه التجربة لأنهم رأوا الكثير من الأمور المتضاربة والمتناقضة خلال أسفارهم.

ومع مرور الوقت تطور التجار بالعلم، فتطور الحساب مع تعقيد التبادل التجاري، وتطور الفلك مع زيادة المخاطرات البحرية. كما أدت الثروات المتزايدة والفراغ والراحة والأمن إلى توفر ما يلزم للبحث والتفكير والتأمل. فكان الناس لا يتساءلون عن

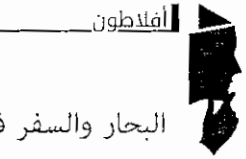

البحار والسفر فيها فقط، بل كانوا يتساءلون عن ألغاز الكون من حولهم أيضًا. لذلك فقد كان أول الفلاسفة اليونانيين من الفلكيين الفخورين بما حققوه من إنجازات كما قال أرسطو.

وبعد الحرب مع بلاد فارس اندفع الجميع إلى أبعد الحدود وجاءوا بمختلف المعارف إلى بلادهم وقاموا بدراسات عظيمة. وقد بلغت عظمتهم إلى حد محاولة إيجاد تفسير للحوادث التي نسبت فيما قبل إلى ما وراء الطبيعة الخارقة أو المعجزات. وتنحى السحر والخرافات جانبًا وأفسحوا طريقًا للعلم وبدأت الفلسفة. وفي البداية كانت الفلسفة طبيعية مادية. وكانت تتناول أصل الأشياء. وكانت نهاية هذا الاتجاه بالطبع على يدي مادية "ديمقريطس" حيث لا يؤمن إلا بالمادة (الفراغ والذرات). وقد ظل هذا الفكر مندثرًا لفترة في عصر "أفلاطون" إلا أنه ظهر من جديد في عصر "أبيقور" (٣٤٢-٢٧٠ ق.م).

إلا أن التحول المثمر في الفلسفة اليونانية جاء على أيدي "السفسطائيين" -معلمي الحكمة الطوافين- فقد اهتموا بالطبيعة بدلاً من عالم الأشياء. وكانوا جميعًا ماهرين. ونذكر منهم: "جورجياس" و"هيبياس". ومنهم من كان متعمقًا وحسن الإدراك مثل: "بورتاجوراس" و"بروديقوس". ومن النادر أن نجد موضوعًا تتناوله الفلسفات العقلية والمسلكية الآن إلا وتناولوه بالبحث. فقد تناولوا كل الموضوعات ولم يخشوا تناول المحرمات الدينية، كما تناولوا العقائد والمذاهب والنظم وغيرها من موضوعات.

أما في السياسة فقد كانوا فريقين، قال فريق منهم ما يقوله "روسو" وهو أن الطبيعة خير والمدنية شر. فالناس سواسية بطبيعتهم إلا أن الطبقية المصطنعة قسمتهم إلى جماعات مختلفة وفرقت بينهم. ومن أجل ذلك وضع الأقوياء القوانين التي تقيد وتحكم الضعفاء منهم. أما الفريق الثاني، فقد كانوا يرون أن الطبيعة وراء الخير والشر مثل "نيتشه" وأن الناس غير متساوين بطبيعتهم. وأن الأخلاق ما هي إلا صنيعة الضعفاء لكبح الأقوياء. والقوة هي الفضيلة العليا التي يبحث عنها الإنسان ويريدها. كما رأوا أن الدولة الأرستقراطية هي الأفضل والأنسب لطبيعة الإنسان من بين كل أنواع الحكومات.

وقد انعكس هذا الهجوم على الديموقراطية إلى ظهور أقلية موسرة أطلقت على نفسها اسم "حزب الخاصة" أو "الأقلية" وكانوا يرون أن الديموقراطية ضعيفة وعاجزة وكاذبة ومصطنعة. ولم تكن هناك ديموقراطية حقيقية في أثينا حيث كان هناك خمسون ألفًا من العبيد من بين سكانها وعددهم أربعمائة ألف نسمة. وكان العبيد مجردين من كل حقوقهم السياسية. وكان الأحرار أصحاب الحق في تمثيل أنفسهم في المجلس العام أقلاء. إلا أن ما طبقه ذلك المجلس العام (الأكسليزيا) من ديموقراطية كانت تامة ومثالية، كانت مصدر السلطة وأعلى أجهزة الدولة. وكانت المحكمة العليا (الديكاستريا) مكونة من ألف عضو (لجعل الرشوة متعذرة ومكلفة). وكان اختيار القضايا يتم بطريقة عشوائية، فلا يوجد نظام آخر أكثر ديموقراطية[1]، إلا أن معارضيه رأوا أنه سخيف وظالم.

أما الحروب البلوبونيزية الطويلة[2] (٤٣١-٤٠٤ ق.م) التي تحاربت فيها أثينا واسبارطة فقد أدت إلى هزيمة الأسطول الأثيني، وتم إقصاء النظام الديموقراطي والتخلي عن الديموقراطية تمامًا على يد "كريتياس" زعيم الحزب "الأوليجاركي" وبدأ

(١) - الديموقراطية: شكل من أشكال الحكم يشارك فيه جميع المواطنين المؤهلين على قدم المساواة -إما مباشرة أو من خلال ممثلين عنهم منتخبين- في اقتراح، وتطوير، واستحداث القوانين. والديموقراطية تشمل الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي تمكن المواطنين من الممارسة الحرة والمتساوية لتقرير المصير السياسي. ويطلق مصطلح الديمقراطية أحيانا على المعنى الضيق لوصف نظام الحكم في دولة ديمقراطية، أو بمعنى أوسع لوصف ثقافة مجتمع. والديمقراطيّة بهذا المعنَى الأوسع هي نظام اجتماعي مميز يؤمن به المجتمع ويسير عليه ويشير إلى ثقافةٍ سياسيّة وأخلاقية معيّنة تتجلى فيها مفاهيم تتعلق بضرورة تداول السلطة سلميًا وبصورة دورية. (المترجم)

(٢) - حرب يونانية قديمة وقعت بين الأثينيين ضد العصبة البلوبونيزية بزعامة إسبرطة. ويقسم المؤرخون الحرب إلى ثلاث مراحل: في المرحلة الأولى قامت إسبرطة بغزوات متتالية على أتيكا، بينما كان للأثينيين التفوق البحري في الإغارة على ساحل بلوبونيزيا في محاولة لقمع الاضطراب في الإمبراطورية الأثينية. هذه الفترة من الحرب انتهت بتوقيع معاهدة سلام نيقياس. لكن سرعان ما سقطت هذه المعاهدة، وتجدد القتال في بلوبونيزيا. فأرسل الأثينيون قوات مشاة ضخمة للهجوم على سيراكوس في صقلية، ففشل الهجوم فشلاً ذريعاً، وتم القضاء على عدد كبير من القوات. كان هذا بداية للمرحلة الثالثة من الحرب، والتي يشار إليها باسم الحرب الدكلينية. في هذه المرحلة، حصلت إسبرطة على دعم من فارس، موجهاً للتمردات التي قامت بالولايات الأثينية في بحر إيجا، فقوضت أركان الامبراطورية الأثينية، وفي النهاية، أفقدت المدينة تفوقها البحري. وأدى دمار الأسطول الأثيني في إيكوسبوتامي إلى إنهاء الحرب واستسلم الأثينيون في العام التالي. (المترجم)

يمتدح الحكومة الأرستقراطية (حكومة الأشراف) وتم نفي عدد من زعماء الحزب "الأوليجاركي"[1].

وعند الاستسلام النهائي لأثينا، كان أحد شروط الصلح الذي فرضته عليها أسبارطه هو عودة زعماء الأرستقراطية من المنفى. وقد أعلن من عادوا بمجرد عودتهم مع زعيمهم "كريتياس" ثورة الأغنياء على الحزب الديموقراطي الذي كان يحكم أثينا أثناء الحرب. إلا أن الثورة أخفقت وقُتل "كريتياس" وكان تلميذًا لسقراط وعمًا لأفلاطون.

• ٢- سقراط:

إن كان لنا أن نحكم من خلال التمثال النصفي -وهو الأثر الوحيد الذي وصلنا من سقراط- فلنا أن نقول إنه لم يكن وسيمًا. فقد كان أصلع وكبير الوجه وعميق العينين. كما كان كبير الأنف. أي أن رأس سقراط أقرب إلى رأس أحد الحمالين وليس كبير الفلاسفة في عصره. ونحن نعرف القليل عن سقراط إلا أننا نعرف عنه ما يكفي، كما أننا نعرف عنه أكثر مما نعرف عن أفلاطون أو عن أرسطو.

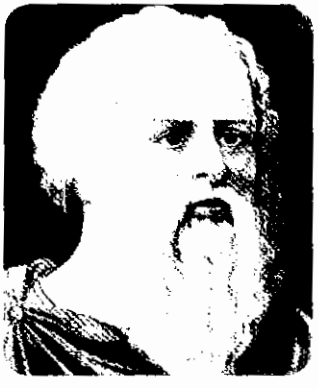

وبعد أكثر من ألفي عام يمكننا أن نتخيل هيئته بثوب مهلهل وهو يسير في الأماكن المفتوحة دون أن يهتم بالسياسة أو سخافاتها. وكان يجمع الشباب المتعلمين

(١) - الأوليجاركية: حكم الأقلية، وهو شكل من أشكال الحكم بحيث تكون السلطة السياسية محصورة بيد فئة صغيرة من المجتمع تتميز بالمال أو النسب أو السلطة العسكرية. وغالبا ما تكون الأنظمة والدول الأوليجاركية مسيطر عليها من قبل عائلات نافذة معدودة تورث النفوذ والقوة من جيل لآخر. (المترجم)

حوله ويسألهم ويحاورهم. وكان الشباب يلتفون حوله بأعداد كبيرة مما ساعده على خلق فلسفة أوروبية. كانوا يستمعون له ويعجبون بنقده للنظام الديموقراطي في أثينا وهجومه عليه. وكان من بين طلابه أغنياء مثل "أفلاطون" و"السبيادس". وكان من بينهم بعض الاشتراكيين أيضًا. وقد أحب الاشتراكيون في سقراط عدم اهتمامه بفقره. كما ضم بين طلابه واحدًا أو اثنين من الفوضويين مثل "أرستيبوس" الذي كان يحلم بعالم لا يوجد فيه أسياد وعبيد حيث يعيش كل سكان العالم بلا قلق مثل سقراط نفسه. وهكذا تمثلت كل التيارات الفكرية فيمن يجلسون حول سقراط من طلاب علمه، وربما تكون اجتماعاتهم معه أصل هذه الاتجاهات الفكرية والاجتماعية.

لم يعمل سقراط بأي عمل قط، بل إنه لم يهتم بالمستقبل أبدًا. وكان يأكل حينما يدعوه طلابه لتشريف موائدهم، فقد أحبوا مرافقته وأكرموه. إلا أنه كان غير مرحب به في بيته، فقد أهمل زوجته وأولاده. وكانت زوجته ترى أنه كسول ولا يصلح لعمل أي شيء. وكان لا يستطيع توفير أي شيء لأسرته إلا الخبز فقط. وكانت زوجته تحب الحديث بكثرة مثله، وقد أحبته رغم كل شيء ولم تستطع رؤيته وهو يموت بعد أن تجرع السم بعد أن تجاوز السبعين عامًا.

أما طلابه فقد كانوا يحترمونه لأنه كان شجاعًا فقد عرض نفسه للخطر أثناء معركة حتى ينقذ حياة شخص آخر، كما أنه لم يكن يفرط في الشراب. إلا أن أهم ما أحبوه فيه هو الاعتدال في الحكمة. فهو لم يدع أنه حكيم بل كان يبحث عن الحكمة باهتمام. وقد كانت فلسفته تبدأ بـــ"لا أعرف سوى شيء واحد وهو أنني لا أعرف شيئًا." وأن الفلسفة تبدأ عندما يبدأ الإنسان في تعلم الشك وخصوصًا الشك في المعتقدات والبديهيات والثوابت والحقائق التي يؤمن بها الإنسان.

وقد جاء فلاسفة قبل سقراط بالطبع، وكان بعضهم أقوياء مثل: "طاليس" و"هيراقليطس"، والبعض الآخر من الدهاة مثل: "بارميندس" و"زينون"، أو عرافون مثل: "فيثاغورث" و"أمباذقليس" لكنهم كانوا فلاسفة طبيعيين. حيث بحثوا في الطبيعة وأصول العالم المادي وقد وصف سقراط هذه الفلسفة بأنها "حسنة". إلا أنه رأى أن هناك ما هو أجدر بالدراسة وهو الإنسان وكيف سيكون في المستقبل، وليس في الطبيعة بما فيها من أشجار وحجارة.

لذلك فقد اتجه سقراط إلى البحث في أعماق النفس الإنسانية، حيث وضع افتراضات وحاول الوصول إلى اليقين. فإذا تحدث أحد عن العدالة، سأله ما هي العدالة؟ وما هو الشرف؟ والفضيلة؟ والوطنية؟ فقد أحب أن تتناول أبحاثه مثل تلك الأخلاقيات.

وقد عانى البعض من طريقة سقراط في البحث القائم على التساؤل الذي يحتاج إلى تعريف واضح وتحليل منطقي. وقد اعترض بعضهم على طريقته، وقالوا إنه يسأل أكثر من اللازم، وإنه يترك عقولهم مضطربة وفي حيرة أكثر مما كانوا عليه قبل النقاش. إلا أنه ترك إجابات مهمة على سؤالين من أهم الأسئلة التي تناولها وهما: ما معنى الفضيلة؟ ما هي أفضل دولة؟

وقد كان هذان الموضوعان أهم ما تناوله شباب أثينا في تلك الفترة وتساءلوا عنه. فقد قضى السفسطائيون على إيمان الشباب بآلهتهم، كما قضوا على قوانين الأخلاق التي يدعمها الخوف من عقاب تلك الآلهة. وأصبح من السائد أن يفعل الإنسان ما يطيب له دون أن يخترق القوانين الوضعية. أما بالنسبة للحكم والحكومة فلا دور لبسطاء الشعب فيه. كما أن عزل قادة الجيش أو حتى إعدامهم يمكن أن يتم بسرعة وتهور لا دخل للشعب به. إذن .. كيف يمكن أن تكون هناك قيم أخلاقية جديدة في أثينا؟ وكيف يمكن إنقاذ الدولة؟

ربما تكون الإجابة على هذه الأسئلة هي ما أدى إلى الحكم على سقراط بالموت بتهمة الفساد الأخلاقي. فقد كان كبار السن في أثينا على استعداد لمساندته لو أنه دعا الشباب إلى العودة إلى الأديان القديمة والتحرر من الخرافات والأساطير. لكنه كان يرى أن ذلك تراجعًا لا معنى له. فهو يؤمن بوجود إله واحد، وأن الموت ليس نهاية لحياة الإنسان. وكان يرى أن هناك شريعة وأخلاقًا أبدية أقوى من تلك التي تقوم على دين ضعيف في أثينا. وهذا أمر يحتاج إلى بصيرة واضحة تضمن السلم والنظام والنوايا الطيبة.

أما بالنسبة للحكم، فإن كانت الفوضى تسود الحكومة ذاتها، فهي تحكم الشعب ولا تدعمه، تأمر ولا تقود. فكيف يمكننا إقناع الفرد بأن يلتزم بالقانون؟ لكن لا غرابة أن تسود الفوضى في البلاد التي يعمها الجهل. أليس من الجهل أن يحل العدد محل

الحكمة؟ ألا نرى أن الناس يصبحون أكثر سخافة وعنفًا وقسوة وهم مجتمعين عما لو كان كل منهم منفردًا بنفسه؟ أليس من المحزن أن يتولى الحكم خطباء يعتمدون على خطبهم الرنانة التي يستمر رنينها طويلاً مثل الأوعية النحاسية الفارغة؟ ولا شك في أن إدارة الدولة تحتاج إلى أفكار أفضل العقول؟ فكيف يمكن إنقاذ المجتمع من مشكلاته إلا بتولي الحكماء والعقلاء أمر هذا المجتمع.

ولنا أن نتصور رد فعل الحزب "الشعبي الديموقراطي" على هذه الأفكار الأرستقراطية التي دعا إليها سقراط. وذلك في وقت الحرب الذي يتطلب إسكات كل معارض لسياسة الحكومة، وفي نفس الوقت كان الأغنياء والمثقفون يعدون للثورة. ولنا أن نتصور ما أحس به "أنايتس" زعيم الحزب الديموقراطي وهو يرى ابنه تلميذًا لسقراط، فيكفر بعبادة الآلهة المتعددة ويسخر منها أمامه. وقد تنبأ "أرسطوفان" بأن يحل الذكاء والعقل محل الفضائل القديمة.

واندلعت الثورة، وحارب الجميع من المؤيدين والمعارضين بضراوة حتى الموت. وعندما انتصرت الديموقراطية، رأى "أنايتس" أن المصير المناسب لسقراط هو الموت. فقد أغوى الشباب وأسكرهم بنقاشاته.

والجميع يعرف نهاية قصة سقراط التي كتبها أفلاطون في نثر أكثر جمالاً من الشعر. حيث رفض مناشدة الشعب وطلب المغفرة. كان القضاة يودون إطلاق سراحه، إلا أن الشعب الغاضب رفض ذلك لأنه سفه آلهتهم وأنكر وجودها. لذلك فقد حكموا عليه بالموت بأن يشرب السم. وجاءه محبوه وقالوا له إنهم رشوا حراسه حتى يفر إلا أنه رفض الفرار. وقد رأى أنه بلغ السبعين من العمر (٣٩٩ ق.م) وأن وقت الموت قد حان، وليس هناك من طريقة أفضل لدعم أفكاره من الموت بهذه الطريقة. وقال لهم: "افرحوا .. سيواري التراب جسدي فقط."

وما أن اقترب وقت التنفيذ، جاء السجان ووقف بجانب سقراط وقال له: "أنت أنبل وأفضل وألطف من جاء إلى هنا، لم أهتم بالسباب أو الثورة التي تصيب من أقدم لهم السم ليشربوه، إنها أوامر السلطات. وأنا متأكد أنك لن تغضب مني فالجريمة ليست جريمتي." ثم انفجر باكيًا وخرج. وكان رد سقراط: "أشكر لك تحياتك وسأفعل ما طلبت." لكن "كريتو" قال له إنه لا يزال هناك متسع من الوقت وأن كثيرًا ممن

حُكم عليهم بالموت بشرب السم قضوا ساعات الأخيرة في لهو ومباهج شهوانية وأكل وشرب، فنهلوا منها قدر استطاعتهم، وأجلوا شرب السم إلى اللحظات الأخيرة.

إلا أن سقراط قال إنهم محقون في ذلك فتأخير شرب السم مفيد لهم، أما بالنسبة له فإن الإسراع أكثر فائدة. فأشار كريتو إلى الخادم الذي خرج وعاد بعد قليل مع السجان وهو يحمل السم. طلب سقراط النصيحة من السجان فيما يمكن أن يفعل بعد شرب السم فنصحه بالمشي إلى أن يشعر بثقل في قدميه، ثم يستلقي حتى يسري السم في جسده.

ثم بدأ سقراط حوارًا مع السجان، وأثناء الحوار رفع الكأس وشربه في ثبات وهدوء تام. لم يتمالك أي من الموجودين نفسه وبدأوا في البكاء والنحيب. إلا أن سقراط احتفظ بهدوئه وقال: "ما هذا الصراخ، لقد أبعدت النساء عن المكان حتى لا أشعر بالإهانة، حيث يجب أن يترك المرء يموت في سلام. اهدأوا واصبروا." عندما قال تلك الكلمات خجلنا من أنفسنا والتزمنا الصمت. وكان قد بدأ يمشي في الغرفة. وعندما بدأت قدماه تترنح، استلقى على ظهره ساكنًا. وبعد قليل بدأ السجان يتحسس ساقيه ويسأله ما إذا كان يشعر بهما فيجيب بالنفي.

غطى سقراط وجهه، ثم رفع الغطاء بعد قليل وقال: "ستكون النهاية عندما يصل السم إلى القلب." ثم تحدث مرة أخرى إلى كريتو قائلاً: "أرجوك لا تنس دفع ديني إلى أسكيبيوس فأنا مدين له." رد كريتو: "سأدفع الدين .. هل هناك شيء آخر؟" ولم يستمع إلى إجابة. وهكذا كانت نهاية صديقنا الذي كان أحكم وأعقل وأفضل الرجال الذين عرفتهم طوال حياتي.

• ٣- إعداد أفلاطون:

نشأ أفلاطون كشاب يهوى الرياضات الخشنة التي تظهر قوة الرجال، ويقال إن اسمه "أفلاطون" يعني أنه عريض المنكبين. وكان جنديًا قويًا نال جائزتين من الجوائز الرياضية. ولم تكن العادة أن ينشأ الفيلسوف في سن الشباب وهو لا يزال مليئًا بالحيوية. إلا أن أفلاطون رأى أن الفلسفة رياضة أشد سخونة من المصارعة، وذلك بما فيها من أسئلة جدلية وافتراضات وتحليلات. لذلك فقد أصبح محبًا للحكمة ولمعلمه سقراط. وكان دائمًا يحمد الله أنه ولد حرًا وليس عبدًا، وأنه نشأ في عصر سقراط.

وعندما مات سقراط، كان أفلاطون في الثامنة والعشرين من عمره، وقد أثر ذلك فيه كثيرًا وزاد من كراهيته واحتقاره للديموقراطية وللجماهير. وقد أكدت نشأته الأرستقراطية على كل تلك المعاني. وقد أدى به كل ذلك إلى الشعور بضرورة القضاء على الديموقراطية واستبدالها بحكم الأفضل والأعقل من الرجال. وقد قضى حياته باحثًا عن وسيلة تمكنه من اكتشاف أفضل الرجال وأكثرهم حكمة وإقناعهم بفكرته وتمكينهم من الحكم.

إلا أن الجهود التي بذلها في محاولة إنقاذ حياة سقراط أثارت شكوك الديموقراطيين ضده، فنصحه أصدقاؤه بمغادرة أثينا لأن إقامته فيها أصبحت محفوفة بالمخاطر، فكانت فرصته ليشاهد العالم. فسافر في عام ٣٩٩ ق.م في رحلة لم نجد لها أي توثيق محدد، وقد اختلف المؤرخون حول كل مرحلة من مراحلها. وقد سافر إلى مصر حيث كان بها كهنة يحكمونها، وكان فلاسفة النيل يرون أن اليونان دولة وضيعة بلا تقاليد أو حضارة قديمة. وقد ألهمت الحياة في مصر التي يحكم فيها المثقفون شعبًا زراعيًا هادئًا أفلاطون بعض ما كتبه في "المدينة الفاضلة".

أبحر بعد ذلك إلى صقلية ومنها إلى إيطاليا حيث درس نظرية فيثاغورث، وهناك تأثر بجماعة من الناس الذين يعيشون حياة بسيطة بالرغم من أن السلطة كانت في أيديهم.

سافر أفلاطون لمدة ١٢ سنة فزار كل المزارات وجلس مع الحكماء في كل مكان ونهل من الحكمة في كل مكان، ودرس كل شريعة وكل قانون. وفي فلسطين أرض الأنبياء، نهل من فكرهم الاشتراكي. وفي الهند سار على نهر الجانج وتعلم الكثير من الهندوس هناك.

ثم عاد إلى أثينا في عام ٣٨٧ ق.م وكان في الأربعين من عمره وقد أصبح رجلاً ناضجًا بعد أن اختلط بشعوب عديدة ونهل من حكمة بلدان كثيرة، كما فقد حماس الشباب واندفاعه. وكان قد امتزج في فكره أمران يقل الجمع بينهما وهما الفلسفة والشعر.

وقد أدى ذلك إلى صعوبة فهم ما يقوله أفلاطون في بعض الأوقات. فقد نفكر هل ما يقوله أفلاطون حرفيًا أم مجازيًا، هل يمزح أم أنه جاد. كما أن حبه للتهكم والمداعبة

وذكر الخرافات والأساطير قد حير بعض مستمعيه. ولم يكن يقوم بالتدريس إلا من خلال سرد الحكايات.

وما وصلنا من محاورات أفلاطون، هي محاورات كتبها بنفسه ليطلع عليها العامة في عصره. وعلى الرغم من أنه أعدها لتُناسب من يتذوق الفلسفة إلا أن بها كثيرًا من المداعبات والمجاز والموضوعات الغامضة التي يمكن لطلاب العلم أن يتعرفوا عليها.

لكن أفلاطون كان يتصف بصفات ينتقدها في الآخرين. فهو ينتقد الشعراء ويهاجم أساليبهم وخرافاتهم، وهو في نفس الوقت شاعر يستخدم الخرافات والأساطير في شعره. كما أنه يهاجم الكهنة لأنهم يخوفون الناس من دخول جهنم، وكان في نفس الوقت واعظًا وكاهنًا ودارسًا للأخلاق. وهو يعترف (مثل وليم شكسبير[1]) أن الحوار ما هو إلا مراوغة. وهو يتهم السوفسطائيين[2] بالتجارة بالكلمات، وهو في نفس الوقت لا يترفع عن ذلك.

لكن ذلك هو أسوأ ما يمكن ذكره عن أفلاطون. لكن من أفضل ما ترك هو "المحاورات" التي تعتبر من الكنوز الثمينة، وذلك بالإضافة إلى كتابه "الجمهورية" ففيه المجاز الأفلاطوني وعلمه اللاهوتي[3] وفلسفته الأخلاقية والأدبية والنفسية. وهو كتاب نجد فيه الكثير من مشكلات اليوم. حيث تحدث عن الشيوعية والاشتراكية ومساواة المرأة بالرجل في الحقوق وتحديد النسل وكذلك مشاكل أخرى أثارها نيتشه

(١) - وليم شكسبير (١٥٦٤-١٦١٦م): وليم شكسبير شاعر إنجليزي ويصنف كأعظم كاتب في اللغة الإنجليزية. ويعتبر أشهر كاتب مسرحي إنجليزي. أعماله لا تزال موجودة حتى يومنا هذا. وهي تتكون من ٣٨ مسرحية و١٥٨ سونيت (قصيدة من ١٤ سطرًا ذات مواصفات محددة) واثنين من القصص الشعرية وبعض القصائد. وقد ترجمت مسرحياته وأعماله إلى كل اللغات الحية وتم عرضها على مسارح العالم أكثر بكثير من مؤلفات أي كاتب مسرحي عالمي آخر. (المترجم)

(٢) - السوفسطائية: كلمة يونانية تعني الحكمة. وقد أطلقها الفلاسفة على الحكمة المموهة القدرة على الخطابة أو الفلسفة. والسوفسطائية حركة فلسفية غير متكاملة، ظهرت في القرن الخامس قبل الميلادي، ومركزها أثينا، وهي فلسفة عملية تقوم على الإقناع لا على البرهان العلمي أو المنطقي، وعلى الإدراك الحسي والظن، وعلى استعمال قوة الخطابة والبيان والبلاغة والحوار الخطابي، والقوانين الجدلية الكلامية بهدف الوصول إلى الإقناع بما يعتقد أنه الحقيقة، وبهذا المعنى أصبحت السوفسطائية عنواناً للمغالطة والجدل العقيم واللعب بالألفاظ وإخفاء الحقيقة. (المترجم)

(٣) - علم اللاهوت: هو علم دراسة الموضوعات الإلهية دراسة منطقية، وقد اعتمد علماء اللاهوت على التحليل العقلاني لفهم الدين بشكل أوضح. وذلك حتى يمكن المقارنة بين الأديان .وينقسم علم اللاهوت إلى أفرع كثيرة، كاللاهوت العقائدي، والأدبي، والتاريخي، والفلسفي، والطبيعي وغيرها. (المترجم)

فيما بعد مثل علم الأخلاق والحكومة الأرستقراطية، وكذلك بعض ما تناوله روسو وفرويد. وقد أشاد بالكِتاب كثيرون لدرجة أن أحدهم قال: "احرقوا المكتبات، فما فيها موجود في هذا الكتاب." والآن سنتناول موضوعات هذا الكتاب.

• ٤- المشكلة الأخلاقية:

الحديث يدور في بيت "سيفالوس" وهو أرستقراطي موسر. وقد اشترك في الحديث شقيقا أفلاطون "جلاكون" و"أدمانتوس". كما شارك فيه "ثراسيماخوس" وهو سفسطائي مثير وشرس، وكذلك سقراط الذي يتحدث بلسان أفلاطون[١]. حيث يسأل سيفالوس عن أعظم ما جلبته له الثروة والمال من خيرات. فيجيب سيفالوس بأن الثروة مكنته من أن يكون كريمًا وسخيًا.

ثم يسأله سقراط بطريقة ماكرة عن العدالة، وعن معناها. وهنا نجد أنفسنا أمام موقف من أصعب المواقف الفلسفية، وهو أن يطلب من أحدهم تعريف معنى ما. لكن سقراط يرى أن هذه الطريقة مفيدة في دحض ما يقدمه الآخرون من تعريفات واحدًا تلو الآخر.

وقد أثارت تلك الطريقة ثراسيماخوس فقال: "ما هذه السخافة يا سقراط؟ وكيف يمكن أن تسقطوا جميعًا أمامه بهذه الطريقة الماكرة؟ إن كنت تريد معرفة معنى العدالة .. لا تسأل، ولا تفخر بأنك قادر على دحض ما يقدمه له الآخرون من تعريفات.

إلا أن سقراط لم يهتز أو يتراجع واستمر في توجيه الأسئلة للآخرين وتجاهل الإجابة على أسئلة ثراسيماخوس، بل إنه بدأ يستفزه ويدفعه إلى أن يلزم نفسه بتعريف محدد. فيقول السفسطائي: "أعلن أن القوة هي الحق وأن العدالة هي مصلحة الأقوى، فكل الحكومات تسن القوانين، سواء كانت ديمقراطية أو أرستقراطية أو أوتوقراطية[٢]."

وكل الحكومات تضع القوانين التي تحقق مصالحها، كما أنها تطبق العدالة من

---

(١) - هذا من بين أنواع التعقيد والغموض التي أشرت إليها في التعقيب، فالشخصية المشاركة في هذا الكتاب كسقراط تتحدث من خلال لسان أفلاطون. ربما أراد أفلاطون أن يقول إن ما سيرد على لسان تلك الشخصية هو محاولة منه للتعبير عن أفكار معلمه. (المترجم)

(٢) - الأوتوقراطية :شكل من أشكال الحكم، تكون فيه السلطة السياسية بيد شخص واحد بالتعيين لا بالانتخاب. كلمة "أوتوقراط" أصلها يوناني وتعني: حكم الفرد. (المترجم)

وجهة نظرها، وفي إحدى أنواع تلك الحكومات وهي الأتوقراطية يتم مصادرة الأملاك بطريقة جماعية فيتحول المواطنون فجأة إلى عبيد. ومن يفعل ذلك لا يجد من يلومه أو يسميه لصًا أو مختلسًا، بل يبارك الجميع ما قام به خوفًا من بطشه.

هذا هو المبدأ الذي ينسب اليوم إلى الفيلسوف الألماني نيتشه، فهو يسخر من الضعفاء الذين يعتقدون أنهم من الصالحين لأنهم ليسو أقوياء، فحفنة من القوة خير من جوال من الحق. وقد وضع أفلاطون نفسه هذا المبدأ في حوار آخر استنكر فيه السفسطائي كل الأخلاق واعتبرها بدعة يريد الضعفاء من خلالها الحد من قوة الأقوياء.

ولكن إن كان هناك من يملك قوة كافية (السوبرمان الذي نادى به نيتشه فيما بعد) لتحطيم قيود الأخلاق والخروج منها، فإن كل القوانين وأعمال السحر والدساتير والشرائع والخرافات والتعاويذ ستسقط تحت أقدامه. فمن يريد الحياة يجب أن يسمح لرغباته في الانطلاق. لكن يجب أن يملك الشجاعة التي تمكنه من توجيه تلك الرغبات وإشباعها. وكثير من الناس غير قادرين على فعل ذلك، لهذا فهم يلومون الأقوياء لإخفاء عجزهم وضعفهم. ومثل تلك العدالة ليست لكل البشر، ولكنها لأشباه الرجال، ففضيلة الرجل الحقيقية هي الشجاعة والذكاء. وربما تكون تلك النظرة للعدالة ناتجة عن سياسة أثينا الخارجية الاستعمارية، ومعاملتها القاسية للدول الأضعف منها.

ولكن كيف يواجه أفلاطون الذي يتحدث بلسان سقراط هذا التحدي في نظرية العدالة والأخلاق. في البداية لم يواجهها مطلقًا، ثم قال إن العدالة هي علاقة بين الأفراد بناء على نظام اجتماعي قائم وبالتالي يمكن دراستها بطريقة أفضل من خلال دراسة بناء المجتمع أولاً. وهو يرى أننا يمكننا وصف الفرد العادل بطريقة أفضل إن استطعنا أولاً وصف دولة عادلة. ويقدم على ذلك مثالاً وهو عند قياس قوة النظر عند الإنسان نعرض عليه أحرفًا كبيرة أولاً، ثم نعرض عليه أحرفًا صغيرة، أي أننا نبدأ بالكبير وننتهي بالصغير.

لكن أفلاطون يخرج من موضوع إلى آخر بسلاسة وبراعة، وهذا واضح في كتاباته ومحاوراته. وهو واضح أيضًا في خروجنا من هذا الموضوع والدخول إلى موضوع المشكلة السياسية بنفس الطريقة.

• ٥- المشكلة السياسية:

يرى أفلاطون أن العدالة من الممكن أن تكون بسيطة، لو كان الناس بسطاء، ولكانت الفوضوية الشيوعية كافية في مثل تلك الحال. وهو يصف فيما يلي تصوره للحكومة التي يريد أن توجد. يقول:

"لنتأمل أولاً، كيف تكون الحياة في هذه الدولة .. أهي دولة تنتج قمحًا وخمرًا وملابس وأحذية، ويبنون بيوتًا لأنفسهم؟ كما أنهم يعملون في الحقول بأقدام عارية وينتجون القمح والشعير. وفي الشتاء يرتدون ثيابهم الثقيلة والنعال ويعيشون حياتهم. يأكلون الخبز ويصنعون الفطائر والأرغفة المتنوعة وينامون على سرر يصنعونها من أفرع أشجار السدر أو الريحان. ويشربون الخمر الذي يصنعونه بأيديهم ويغطون رؤوسهم بأكاليل من الزهور.

كما أنهم يستوردون كل ما يلزمهم من ملح وزيتون وجبن وبصل وثوم وخضراوات من دول أخرى لزوم طهي أطعمة جيدة. ويصنعون الحلوى ويحرصون على توفير حياة مريحة لأطفالهم."

وهذا في مجمله يشبه ما قال به ديوجين[١] الذي اعتقد بضرورة عودتنا إلى الحياة البسيطة مع الحيوانات الأليفة الهادئة. وهذه النظرة تضع أفلاطون مع كل من سان سيمون وفورييه ووليم موريس وتولستوى[٢]. إلا أن أفلاطون أكثر ريبة في نوايا الإنسان

---

(١) - ديوجين: هو ديوجين الكلبي (٤٢١-٣٢٣ ق.م) وهو مؤسس الفلسفة الكلبية، وعُرف بتقشفه الشديد. ويقال إنه عاش في برميل ولم يسكن في بيت قط. وكان يرى بضرورة العودة إلى حياة الطبيعة وعدم الإسراف وكان كل ما يملكه هو كيس يضع فيه الخبز، وكان يرتدي عباءة خشنة لا تكاد تستر جسمه ويحمل عصا ومحفظة صغيرة. وقيل إنه كان يرقد أحيانًا عاريًا تمامًا في الخلاء. ويحكى أن الاسكندر الأكبر كان معجبًا بفلسفته وطريقة حياته فقال ذات يوم: «لو لم أكن الإسكندر لكنت أتمنى أن أكون ديوجين.» ويقال إن الاسكندر سعى للقاء ديوجين وتحاور معه، ثم سأله عما إذا كان يريد أي شيء، فرد ديوجين: «نعم ... اذهب فأنت تحجب ضوء الشمس عني. ويقال إنه كان يسير ومعه مصباح مضيء أثناء النهار، وعندما سئل عن ذلك، قال أبحث عن رجل شريف. وهكذا أصبح التعبير «مصباح ديوجين» في عصرنا هذا يعني البحث عن الحكمة. وكان ديوجين معتاداً على ضبط النفس والتقشف الصارم معرضًا نفسه للبرد والحر الشديدين. ويقال إن ديوجين والإسكندر ماتا في نفس اليوم، كان ديوجين قد جاوز التسعين والإسكندر في الثالثة والثلاثين من العمر. (المترجم)

(٢) - وتعريفهم كالتالي: سان سيمون (١٧٦٠-١٨٢٥م): فيلسوف فرنسي نشأ في باريس وكان يميل إلى ضرورة تدخل الدولة في الاقتصاد. شارل فورييه (١٧٧٢-١٨٣٧م): فيلسوف وعالم اقتصاد وصاحب نظرية اقتصادية عرفت باسمه. وقد تأثر بالأفكار الاشتراكية ومؤلفات كارل ماركس. وليم موريس (١٨٣٤-١٨٩٦م): كاتب =

الطيبة. وهو يتساءل: لماذا لا توجد هذه الحياة البسيطة في أي مكان ولا نجدها على خريطة العالم؟

وهو يجيب على ذلك بقوله إن السبب في ذلك هو شراهة الإنسان وحبه للترف. فالناس لا يكتفون بالحياة البسيطة. والبشر بطبعه محب لاقتناء الأشياء ولديه قدر من الطموح. كما أن روح الغيرة والمنافسة سائدة في البشر، فهم يملون مما في أيديهم بسرعة ويشتهون ما في أيدي غيرهم. لذلك حدثت الرغبة في امتلاك ما هو حق لجماعة أخرى، فكانت الحروب نتيجة طبيعية لذلك.

وهكذا يكون لدينا في كل مدينة مجتمعان، مجتمع الأغنياء ومجتمع الفقراء. وعندئذ تنشأ طبقة ثالثة وهي طبقة التجار، وهي طبقة برجوازية يبحث أفرادها عن المكانة الاجتماعية من خلال تكوين الثروات. وعندما يصبح التجار أصحاب ثروات تفوق ثروات الطبقة الأرستقراطية من أصحاب الأملاك والأراضي، يحل النظام الأوليجاركي (حكومة قلة من الأغنياء) محل النظام الأرستقراطي. ويحكم الدولة كبار التجار وأصحاب البنوك.

إلا أن كل حكومة إلى زوال إن أفرطت في تجاوز مبادئها الرئيسية. فالحكومة الأرستقراطية[1] تقضي على نفسها عندما تحصر السلطة في دائرة صغيرة، وحكومة الأغنياء تقضي على نفسها بسبب التنافس على تكوين الثروات. والنتيجة الحتمية في أي من الحالتين هي قيام ثورة. وعندما تقوم الثورة يبدو أنها قامت لأسباب بسيطة وتافهة، إلا أنها تكون نتيجة لتراكم أخطاء جسيمة متعددة. وتأتي الديموقراطية ويتغلب الفقراء على باقي المنافسين وينال كل أفراد الشعب قسطًا متساويًا من الحرية والسلطة.

إلا أن الديموقراطية أيضًا تقضي على نفسها بالإفراط في تطبيق مبدأ المساواة.

= اشتراكي إنجليزي ومعماري ومصمم أثاث ومنسوجات. ليو تولستوي (١٨٢٨-١٩١٠م) روائي ومصلح اجتماعي ومفكر أخلاقي. ويعد من أعمدة الأدب الروسي. وهناك من يعتبره أعظم روائي في العالم. (المترجم)

(١) - الحكومة الأرستقراطية: تعني حكم أفضل المواطنين لمصلحة جميع الشعب. فالأرستقراطية إذن تعني «حكم الأفضلين». يقول أفلاطون في الفصل الثامن من كتاب الجمهورية: «إذا انحرفت الأرستقراطية وتحول أبناؤها إلى إيثار الثروة على الشرف تحولت إلى الأوليجاركية (حكم القلة) التي تجعل الثروة أساس الجدارة وهو إثم فظيع.» ويرى أرسطو أن الأرستقراطية حكومة الأقلية الفاضلة العادلة، وأن الأوليجاركية فساد طبيعي لها. (المترجم)

حيث يؤدي ذلك الحق إلى مساواة الجميع في الحصول على المنصب وتحديد السياسة العامة. وقد يبدو هذا التسلسل جيدًا لأول وهلة، إلا أنه يتحول إلى مأساة لأن الشعب ينقصه الإعداد الكافي الذي يمكنه من اختيار أفضل من يمثله في الحكم.

كما أن الشعب ليس على وعي كاف، فهو يكرر العبارات التي يقولها الزعماء دون فهم أو تفكير. لذلك فإن حكم الجماهير يعلى من قدر المداهنين والمتملقين، ولذلك يفوز به أكبر المداهنين والمتملقين، ويصبح صاحب سلطة عليا مطلقة في البلاد.

ويرى أفلاطون أننا نعتمد على المختصين في أمور بسيطة، مثل صناعة الأحذية مثلاً. لكننا في السياسة نفترض أن كل شخص لديه من رجاحة العقل ما يمكنه من إدارة مدينة أو ولاية. فعندما يمرض الإنسان يذهب إلى طبيب متخصص درس الطب وحصل على شهادة تجيز له العمل كطبيب. ولا علاقة في تلك الحال لفصاحة لسان الطبيب وقدرته على الحديث بمهارته الطبية. ويجب أن يكون الحال كذلك عند التعامل مع أمراض الأمة، حيث يجب أن نستدعي لمعالجتها أحكم وأعقل وأقدر الرجال. كما يجب أن تكون هناك ضوابط لمنع قليلي الكفاءة والفاسدين من الوصول إلى المناصب، وهذه هي المشكلة السياسية الحقيقية.

• ٦- المشكلة النفسية:

وراء هذه المشكلات السياسية مشكلة طبيعة الإنسان، لذلك فلابد أن ندرس علم النفس لنفهم السياسة. وتختلف الحكومات باختلاف أخلاق رجالها. كما تتألف الدول من طباع أهلها، فالدولة مرآة تعكس أخلاق مواطنيها. لذلك فإن أفضل الدول بها أفضل مواطنين. لكن ما هي المادة الإنسانية التي يجب أن تتناولها فلسفة السياسة بالبحث؟

يرى أفلاطون أن هناك ثلاثة منابع أساسية للسلوك الإنساني وهي: الرغبة والعاطفة والمعرفة. أما الرغبة فهي خزان يتفجر حيوية وخاصة في الناحية الجنسية. والعاطفة رد فعل طبيعي للتجربة والرغبة ومكانها القلب. والمعرفة مكانها العقل وتعتبر مرشدًا وهاديًا للروح. وكل هذه الصفات توجد عند الجميع بدرجات مختلفة. وبعض الرجال تسود عندهم الرغبة وتقودهم إلى الانغماس في المنافسة والنزاع وحب المظاهر والترف والبذخ وهؤلاء هم كبار رجال الصناعة. وهناك من يتحلون بالشجاعة والإقدام ولا يبالون بأي شيء سوى إحراز نصر ما. فهم يحبون إحراز السلطة وتحقيق النصر

ولا يهمهم المال أو الأملاك. يفرحون في ميدان المعركة وليس في السوق. وهؤلاء هم صناع الجيوش والأساطيل حول العالم. أما الفئة الثالثة والأخيرة فهم من يجدون متعة في التأمل والتفكير ولا يسعون إلى تحقيق نصر أو تكوين ثروة، إنهم تواقون إلى المعرفة. وهم أصحاب إرادة من نور وليست من نار. إلا أنهم يكونون على هامش الحياة ولا يعرف الناس قدرهم حق المعرفة ولا يعرفون كيف يستفيدون منهم.

ولذلك ففي الدولة المثالية عند أفلاطون، تتولى القوى الصناعية الإنتاج ولا تحكم، ويتولى أصحاب العلم والمعرفة والفلسفة حكم البلاد. فالشعب بدون توجيهاتهم مجرد جمهور بلا نظام. ويحتاج الشعب إلى هدي الفلاسفة مثلما تحتاج الرغبات نور العلم. والبلد الذي يتولى حكمه تاجر محب للثروات مآله الخراب، وكذلك الحال في المجتمع الذي يتولى قائد عسكري حكمه مستعينًا بجيشه، حيث يقيم حكومة عسكرية ديكتاتورية. لذلك فأفضل مكان لرجال التجارة والإنتاج هو السوق وأفضل مكان لرجال الجيش هو ميدان المعركة. وكلاهما لا يصلح لمنصب سياسي. أما قيادة الشعب فالأولى بها هو الفيلسوف القائد. ولن تنجو المدن والدول من الشرور والأمراض والفساد إلا إذا أصبح الفلاسفة ملوكًا، وذلك حين تجتمع الحكمة والزعامة في رجل واحد. وهذا هو ما يقوم عليه فكر أفلاطون.

• ٧- الحل النفسي:

ما العمل إذن؟

الأمر يبدأ من الأطفال، حيث يجب إخراج من هم دون العاشرة من المدن إلى الريف. وذلك لنحميهم من عادات آبائهم. حيث لا نستطيع إقامة مدينة مثالية بأطفال أفسدهم الكبار. وقد يساعدنا أحد الحكام بتقديم جزء من بلاده لإقامة مدينة لهؤلاء الأطفال (وقد فعل أحد الحكام ذلك كما سنرى فيما بعد). ويجب أن يتلقى كل طفل فرص متساوية للتعليم والمساواة بين جميع الأطفال في ذلك. فالمرحلة الأولى هي التعليم الموحد في المدينة.

في السنوات العشر الأولى، يجب أن يتم التركيز على بناء أجساد الأطفال. حيث يكون في كل مدرسة ملعب كبير وألعاب رياضية، وهذا يقوي صحة الأطفال خلال تلك السنوات العشر ولا يكون هناك حاجة إلى العلاج. فالمرض والعلاج نتيجة طبيعية

لحياة الترف والكسل التي يتسبب في انتفاخ البطن بالغازات وإصابة البدن بالبرد والزكام. وعلاج تلك الأمراض يبعدها عنا لفترة، لكنه لا يشفيها تمامًا، وهذا سببه الغنى والكسل. لذلك نجد أن أصحاب الحرف اليدوية التي تعتمد على استخدام القوة البدنية يفضلون العلاج الناجع السريع مثل العمليات الجراحية أو الكي أو المسهل أو المطهر أو المقيئ، ولا يرغبون في أي علاج يتطلب الراحة والبقاء في الفراش.

لكن الرياضة البدنية الكافية والأبدان السليمة لا تكفي. والإفراط فيها يجعل الشخص مسرفًا في الخشونة. فكيف يمكن الجمع بين اللطف والكياسة والشجاعة القوة في نفس الوقت؟ قد تبدو الصفتان متضاربتين، لكن ذلك التوازن ممكن أن يتحقق من خلال تعلم الموسيقى وحب العدل. فالموسيقى والغناء والفنون تجد طريقها إلى خفايا الروح وتهذب السلوك.

يقول "دانيال أوكونيل[1]": "دعني أكتب أغاني الشعب ولا دخل لي بمن يضع قوانينه." فالموسيقى هامة جدًا لأنها تحدث صفاء في الشعور وتهذب الخلق. لذلك فهناك قسس تعالج النساء المرضى بالموسيقى والرقص. حيث يرقصن على أنغام الموسيقى لفترة طويلة إلى أن يسقطن من شدة التعب، وعندما يستيقظن يكتشفن أنهن قد شفين من أمراضهن.

كما أن ترويض غرائز الإنسان وتهذيبها أمر مهم. حيث تصحو الرغبات وتتأجج بشدة عندما يخمد ما لدى الإنسان من قوى عاقلة ومهذبة. وإن ترك الإنسان نفسه لتلك الغرائز والشهوات، فسوف يقترف كل سخافة وجرائم شائنة حتى وإن كانت زنا المحارم أو قتل الوالدين.

لكن عندما يكون إشباع الشهوات باعتدال والنوم جيد، يبتعد الإنسان عن الأحلام غير المشروعة ومحاولة تحقيقها. وهذه الشهوات تستيقظ فينا جميعًا أثناء النوم، حتى عند أفضل من فينا.

وإن كانت الموسيقى تعطي الجسم اللطف والصحة، لكن الإفراط فيها خطير مثل الإفراط في ممارسة الرياضة. فإذا كان الاكتفاء بالرياضة فقط يحول الإنسان إلى

---

(١) - دانيال أوكونيل (١٧٧٥-١٨٤٧م): رجل دولة أيرلندي كان يدافع عن حقوق الكاثوليك السياسية في بريطانيا. (المترجم)

وحش، فالاكتفاء بالموسيقى فقط يضعف الإنسان ويجعله غير ذي قيمة. حيث تكون أحاسيسه مرهفة جدًا فلا يقوى على كثير من الأعمال.

وبعد سن السادسة عشر يتم التوقف عن استخدام الموسيقى إلا في حالتين وهما الغناء في الكنائس وترغيب الطلاب فيما لا يقبلون عليه من مواد دراسية مثل التاريخ والعلوم والرياضيات. حيث يمكننا وضع هذه المواد في أبيات شعر تغنى أو أعمال فنية مناسبة لسن الطفولة والشباب لتقريبها لهم[1]. فلا ينبغي أن يُحصل الطالب المعرفة بالإكراه، لذلك عليكم أن تدمجوا التعليم في مراحله الأولى بالتسلية. وهذا يمكن من التعرف على ميول الطفل ورغباته.

وبهذه الطريقة تتحقق لدولتنا المثالية إمكانيات طيبة، حيث يصبح أفراد المجتمع بهذه الطريقة متحدين ومتعاونين وملتزمين بحقوق وواجبات متماثلة. لكن الناس بطبيعتهم يحبون المال ويميلون إلى الغيرة والتنافس، فكيف يمكن إقناعهم بالسير في طريق آخر؟

هل الطريق إلى ذلك هو عصي رجال الشرطة؟ لا.. فهي طريقة قاسية ووحشية ومكلفة، هناك وسيلة أفضل وهي أن يكون للمجتمع دين وإيمان.

حيث يعتقد أفلاطون أن المجتمع لن يكون قويًا إن لم يؤمن بالله. كما أضاف إلى ذلك الإيمان بوجود حياة أبدية في الآخرة، فالإيمان بها يجعلنا شجعانًا عندما نواجه الموت وعند موت الأحباب. وهذا الإيمان مصدر خير لنا ولأطفالنا.

ومن يتجاوز مرحلة السنوات العشر الأولى بنجاح يتلقى عشر سنوات تالية من التدريب والتعليم الجسدي والعقلي والخُلقي. ثم يمرون باختبار أكثر صعوبة من اختبار المرحلة الأولى. أما من يخفقون في الاختبار الثاني، فيصبحوا مساعدين أو فنيين أو عسكريين، وعلينا أن نبذل جهدًا معهم حتى يقبلوا مصيرهم بروح طيبة وفي هدوء. فما الذي يمنعهم من حمل السلاح وتدمير الدولة المثالية لتصبح أثرًا بعد عين. وما الذي يمنعهم من إقامة الدولة التي تعتمد على القوة والعدد الكبير.

---

(١) - وهذا ما يفعله الآن بعض المعلمين في مراكز الدروس الخاصة في مصر وغيرها، فموقع youtube.com على شبكة الإنترنت يعج بتسجيلات دعائية قصيرة لمعلمين يغنون المنهج بالكامل مع الطلاب في قاعات كبرى قبل الاختبارات كنوع من المراجعة. (المترجم)

في تلك الحالة، الحل الوحيد هو الدين والإيمان. حيث يجب أن نخبر الراسبين أن ما رسبوا فيه من مواد أمر من صنع الله ولا مرد له. ويمكننا أن نقص عليهم قصة المعادن، كما يلي:

أيها الناس، أنتم إخوة. لكن الله خلقكم مختلفين. فالبعض قادر على الزعامة وهم مثل الذهب. والبعض مثل الفضة وهم من يساعد الحكام والقادة. أما باقي الناس فهم مثل النحاس والحديد لذلك يعملون بالزراعة أو الصناعة. ولا بأس أن يجمع الابن بين الحديد والنحاس بالرغم من أنه جاء من أبوين ذهبيين أو فضيين. كما أن من خلقهم الله مثل الحديد والنحاس لا يصلحون لحماية الدولة وحراستها.

لكن، ما هو مصير الفئة السعيدة التي نجحت في كل مراحل الاختبار المتعاقبة؟

نعلم هذه الفئة الفلسفة، سيكونون قد بلغوا سن الثلاثين، وليس من المنطقي أن يدركوا لذة تعلم الفلسفة قبل هذه السن. ومن يتعلمها قبل هذه السن لا تتجاوز فمه. فهو يتحدث ويناقش، ويعارض ويوافق، لكنه لا يتعمق ولا يفكر كثيرًا. بينما تحتاج الفلسفة إلى أن نفكر بوضوح ونبحث عن الحقيقة النهائية، كما يجب علينا أن نستخدم الحكمة في إدارة الدولة (السياسة).

لذلك على خيرة الشباب أن يتعلموا التفكير الواضح، وعليهم أن يدرسوا مبدأ "المُثل". وهو مبدأ جذاب وغامض وضعه أفلاطون، لكنه يربك طلاب الفلسفة. ويمثل بالنسبة لهم أصعب اختبار بعدما مروا بالعديد من الاختبارات الصعبة.

وقد أشار أرسطو إلى أن أفلاطون يعني بـ"المُثل" ما قصده فيثاغورث بالأعداد والأرقام (أي أنه يقصد أن هذا العالم يحكمه قانون ونظام رياضي) وهذه القوانين وضعها الله في الكون، وقد شاركه في هذا الرأي كل من بلوتارك[1] وسبينوزا. وقد وضع أفلاطون فوق الأكاديمية الشعار التالي: "لا تدع رجلاً جاهلاً بالرياضيات يدخل هنا."

وبغير هذه الأفكار والأنظمة والقوانين التي تحكم العالم، يبدو لنا العالم كما يراه الأطفال، مجرد كتلة مشاعر بلا معنى. حيث لا تكتسب الأشياء من حولنا معانيها إلا من خلال نظم وقوانين وأهداف تحكمها. لذلك فإن جوهر التعليم هو أن نكتشف

(١) - بلوتارك (٤٦-١٢٠ ق. م): مؤرخ و ناقد يونانى كبير ، يعتبر من أكبر مؤرخي السير والتراجم في العالم القديم. ألف كتاب «سير متوازية» قارن فيه بين شخصيات يونانية. وكتب أيضًا محاورات ومقالات. (المترجم)

العلاقات ما بين تلك القوانين والأفكار، وننظم ونرتب حواسنا ومداركنا، وهذا ما يوضح الفارق بين عقل شخص معتوه وعقل الحاكم.

وبعد خمس سنوات من التعامل مع مسائل "المُثل" الصعبة والغامضة يصبح المتدرب إنسانًا مكتملاً يمكنه التعامل مع أعمال الحياة العامة، كما أنه يحصل على مرتبة الفيلسوف القادر على حكم دولة وتحرير الجنس البشري.

لكن تعليم هؤلاء الرجال لا ينتهي بهذه المرحلة المكونة من خمس سنوات، فكل ما مروا به من خبرات لسنوات طوال هي خبرات نظرية وآن الأوان كي ينزلوا من قمة العلم الفلسفي ليجربوا ما تعلموه في العالم المحيط بهم. ويُترك الطلاب في هذا العالم بلا رحمة أو عون، فيجدوا أنفسهم في منافسة مع رجال الأعمال ورجال الصناعة, وبذلك يحتكون بالحياة. قد تحترق أصابعهم بنار التجارب العملية في الحياة اليومية إلا أن ذلك يصقلهم ويعلمهم. كما أن عليهم أن يكسبوا رزقهم بعمل يدهم. ويستمر هذا الاختبار القاسي لمدة خمسة عشر عامًا أخرى. وقد ينهار البعض ولا يستطيعون تكملة التجربة ويخرجون في عملية التصفية والفرز الأخيرة.

أما من استطاع التغلب على كل الصعوبات وتجاوز الاختبار الصعب الأخير بنجاح، فسيكون في الخمسين من العمر، ويتميز بالرشد والصلابة والاعتماد على النفس. وهكذا يصبح هؤلاء حكامًا بطريقة آلية بعد أن تسلحوا بالحكمة والتقاليد والحضارة والثقافة.

• ٨- الحل السياسي:

الديموقراطية -بدون نفاق التصويت والانتخاب- تعني مساواة تامة بين الجميع في الفُرص، وخاصة في التعليم. ولا تعني تناوب هذا أو ذلك للمنصب العام. حيث تتاح الفرص المتساوية أمام الجميع ليعدوا أنفسهم إعدادًا جيدًا. لكن من مروا بجميع الاختبارات القاسية والصعبة من حقهم أن يحكموا الدولة. ولا يتم اختيار الموظفين على أساس التصويت أو الانتخاب، ولا على أساس الانتماء لحزب محدد، ولكن على أساس من الديمقراطية التي تقدم الأقدر والأصلح للمنصب. كما لا يجب أن يشغل أي إنسان أي منصب دون أن يُعد ويدرب تدريبًا خاصًا من أجله، وليس له أن يشغل منصبًا كبيرًا قبل أن يكون قد شغل منصبًا أصغر وأثبت قدراته وكفاءته فيه.

ولكن هل هذه أرستقراطية؟ ليس لنا أن نخشى شيئًا إن كان ذلك الشيء هو الحق. لذلك نريد أن يحكمنا أفضل الرجال. لكننا اعتدنا أن الأرستقراطية تعني توريث السلطة فأصبحنا نخشى استخدام الكلمة. لكن أرستقراطية أفلاطون ليست من ذلك النوع الوراثي. ويمكننا أن نسميها أرستقراطية ديموقراطية. فبدلاً من أن نضطر إلى اختيار أخف الضررين انتظارًا لنتيجة تصويت أو انتخاب، يكون كل أفراد الشعب قادرين على الحصول على فُرص متساوية في التعليم. ولكل منهم نصيبه حسب اجتهاده وقدراته.

وفي هذه الحالة يبدأ ابن الحاكم دراسته تمامًا مثل ابن العامل الفقير الذي يمسح الأحذية أو يغسل الصحون. فإن كان ابن الحاكم غبيًا سيخفق في الاختبار وإن كان ابن العامل البسيط ذكيًا سيرقى في المناصب وقد يصبح حاكم الدولة. كما تفتح الوظائف أمام المواهب، وهذه هي ديموقراطية التعليم. وهي ديموقراطية أفضل وأكثر تأثيرًا من ديموقراطية صناديق الانتخابات.

ولكن كيف يبدأ حكام البلاد أعمالهم بعد أن وصلوا لسن الخمسين عامًا؟ هل ستظل عقولهم قوية؟ ألا يُخشى أن تكون الخبرات الطويلة السابقة قد أثرت على مرونة عقولهم. وقد اعترض "أديمانتوس" على ذلك في إحدى مناقشات أفلاطون وقال إن من سيصلون إلى الحكم في سن الخمسين سيكون حكمهم سخيفًا وأنانيًا أو الاثنين معًا. فمن وهب حياته لدراسة الفلسفة ودرسها في سنوات الشباب وسنوات النضج أيضًا يعيش حياة غريبة جدًا ولا يمكن أن ينتفع العالم به، وذلك لطول انقطاعه عن العالم الخارجي.

وقد ينطبق ذلك على بعض الفلاسفة المحدثين، إلا أن أفلاطون رد على ذلك الاعتراض وقال إنه يقدم للفلاسفة تدريبًا على الحياة بالإضافة إلى التعليم في المدارس. وبذلك يكون المتخرج رجل عمل وليس رجل فكر فقط. كما أن النظام الشيوعي يجب أن يسود بين حكام الدولة. وليس للحكام أن يقتنوا أي أملاك سوى ما هو ضروري جدًا. كما أنهم يتلقون أقواتًا كافية للمحاربين الشجعان ويمنحون أموالاً كافية لمصروفاتهم طوال العام فقط.

سيعيش الحكام حياة مشتركة ويتناولون طعامهم في وجبات مشتركة مثلما هو الحال مع الجنود في معسكراتهم، ولنا أن نخبرهم أن الله سيجازيهم بالذهب والفضة.

وأن معدنهم نفيس وأغلى من كل معادن الدنيا، ولا يجب أن يدنسوه بمعادن الدنيا. وأن عليهم ألا يكونوا مثل باقي المواطنين ولا يتعاملون بالذهب والفضة أو يتخذوا منها حليًا أو يضعونه على ملابسهم أو يأكلون ويشربون في آنية مصنوعة منها. وفي ذلك نجاتهم ونجاة للدولة.

ولو امتلك الحكام العقارات والأراضي والأموال والمعادن النفيسة، لتحولوا إلى حراس ومديرين لتلك الأملاك بدلاً من أن يكونوا حراسًا للدولة وحكامًا لها. كما أنهم سيصبحون أعداء للمواطنين بدلاً من أن يكونوا حلفاء لهم. ويصبحون كارهين ومكروهين وتحل ساعة الدمار لهم وللدولة بسرعة.

وهذه الطريقة تحمي الحكام وترفعهم إلى درجة عالية من النبل والاعتدال، كما أنها تبعدهم عن الصفات الكريهة مثل الجشع وحب المال والبخل والخسة. ومن فوائد هذه الطريقة أيضًا أن من يسعون إلى كسب المال واكتنازه وشراء العقارات والأراضي لن يفكروا في تلك المناصب أبدًا فتبقى من حق الفلاسفة الذين هيأهم أفلاطون لحكم الدولة والقضاء على الصراع والمنافسة بين الأحزاب السياسية الذي تعاني منه كثير من الدول إلى يومنا هذا.

لكن، ما هو موقف زوجات هؤلاء الفلاسفة؟ هل ترضين بالابتعاد عن زخرف الحياة وزينتها ومتعها؟ والرد على ذلك أن هؤلاء الحكام لن يكون معهم زوجات، سيتحررون من الزواج كما تحرروا من السعي وراء الأموال والممتلكات، وسيهبوا حياتهم للشعب بأسره. حتى أطفالهم لن يتركوا لهم وتتولى الدولة رعايتهم. كما يُبعد الأطفال عن أمهاتهم وتتم تربيتهم تربية خاصة مشتركة بعيدًا عن العائلة. وفي مجتمع تربية هؤلاء الأطفال يصبح جميع الأطفال أخوة وجميع البنات أخوات وجميع المربيات أمهات.

لكن من أين تأتي تلك النسوة؟ إنهن نساء العسكريين أو أصحاب الصناعات. أو قد يكون بعضهن ممن وصلن إلى مناصب عليا في الدولة، فأفلاطون لا يمانع في ذلك. فللنساء حق إدارة الدولة وحكمها مثل الرجال طالما أنهن خضن كل الاختبارات الشاقة المتعددة مثل الرجال. وقد اعترض أحد طلاب أفلاطون على ذلك وقال إنه من المعروف أن المرأة مهمتها أعمال البيت والرجل يخرج للعمل. فرد عليه أفلاطون بحدة وقال إن توزيع العمل يقوم على القدرة والكفاءة وليس بناء على نوع الإنسان ذكرًا كان

أم أنثى. فلا مانع أن تحكم المرأة الدولة إن أثبتت مقدرة على ذلك، ولا مانع من أن يغسل الرجل الصحون إن لم يكن لديه مواهب تؤهله لما هو أهم من ذلك.

ثم تطرق الحديث عن الزواج، وتناقش أفلاطون مع طلابه حول تربية الحيوانات وتكاثرها. فإذا كنا نختار أجود السلالات لتزاوج الحيوانات من أجل الحصول على نسل قوي وبصحة جيدة، فلماذا لا نفعل نفس الشيء مع الإنسان؟ بحيث لا يسمح بالزواج إلا لمن هم في صحة جيدة ولا يسمح للرجل بالإنجاب إلا بعد سن الثلاثين وعليه أن يمتنع عن ذلك بعد سن الخامسة والأربعين. وعلى من يصل الخامسة والثلاثين ولم يتزوج أن يدفع ضريبة. ومن يولد دون زواج أو مصاب بعاهة أو مشوه يتم توقيع الكشف الطبي عليه ويترك ليموت. كما أنه على الزوجين أن يعيشا حياتهما الزوجية الطبيعية بعد سن الإنجاب مع تجنب الحمل وإن حدث يتم الإجهاض. وكذلك فإن زواج الأقارب ممنوع لأنه يُضعف النسل. ويباح للشجعان والأشراف والحاصلين على الجوائز من الشباب القوي الزواج بعدد من النساء، وذلك حتى يولد لهم أكبر عدد ممكن من الأطفال.

لكن هذا المجتمع المسالم الذي سيحدد عدد سكانه بمساحة أرضه لابد أن يكون مستعدًا لأي عدو خارجي أو لشن أي حرب إن استدعى الأمر ذلك. لذلك يجب تجنيد عدد كاف من الرجال الأقوياء وتدريبهم على القتال. على أن يعتادوا العيش عيشة خشنة مثل الحكام والقادة، وأن يعيشوا على نفس الموارد البسيطة جدًا والتي تبلغ حد الكفاية فقط.

ويستدعي الأمر كذلك بناء أسطول بحري يستخدم للتجارة والدفاع عن البلاد. وبما أن أكثر الحروب خسة وحقارة هي الحروب الأهلية التي يقتل فيها اليونانيون بعضهم بعضًا، لذلك عليهم أن يؤلفوا عصبة فيما بينهم تجمع كل أبناء الدولة حتى لا يقعوا فريسة لمستعمر أجنبي.

هكذا يكون تكوين الدولة، طبقة عليا من الولاة والحكام، ثم طبقة كبيرة من الجنود والمساعدين، ثم القاعدة الكبرى من العمال والفلاحين والتجار. وعلى الحكام أن ينظموا إلتجارة والصناعة حتى لا يزداد الفقر أو تتضخم الثروات.

وعلى كل من يملك حدًا معينًا من الأموال والعقارات أن يترك ما يزيد عن ذلك الحد

للدولة، كما يمكن العمل على منع الربا وتحديد الأرباح. ولابد من منع الاحتكار. وليس لطبقة اجتماعية أن تتدخل في شئون طبقة أخرى، بل يتعاون الجميع من أجل مجتمع منتج وفعال، ولا شك أن هذه الدولة ستكون عادلة.

• ٩- الحل الأخلاقي:

بعد شرح الموقف السياسي الجيد وطريقة الحكم، لنا أن نعود إلى السؤال الذي بدأنا من عنده وهو: ما هي العدالة؟ حيث يوجد في هذا العالم ثلاثة أشياء تستحق الاهتمام وهي: العدالة - الجمال - الحقيقة. وقد يكون من الصعب جدًا أن نقدم تعريفًا لكل كلمة من هذه الكلمات. لكن أفلاطون غامر ووضع لها تعريفات. فهو يُعرف العدالة كالتالي: "العدالة هي أن يملك الإنسان قدرَ ما يستطيع أن يقوم به من أعمال."

وقد جاء هذا التعريف مخيبًا للآمال، وكنا ننتظر منه أن يقدم ما هو أوضح. فماذا يعني أفلاطون بهذا التعريف؟ ببساطة، أفلاطون يقصد أن كل إنسان يجب أن يتلقى عائدًا مناسبًا لإنتاجه. وبذلك يكون المجتمع شديد الانسجام والفاعلية. كما يكون المجتمع صالحًا للبقاء. وعندما يعتدي أي فرد من أفراد المجتمع على حقوق الآخرين، أو يخرج أي منهم من مكانه الطبيعي أو يحط من قدر آخر. كأن يقلل رجل الأعمال من قيمة حاكم أو يغتصب الجندي مكان الفيلسوف يفسد المجتمع ويتفسخ. وهذا يعني أن العدالة معناها التنسيق الفعال بحيث يؤدي كل فرد دوره في انتظام ودون اضطراب. فالعدالة نظام، وهي للروح كالصحة للجسم. وجميع الشرور أصلها عدم الانسجام بين الإنسان والطبيعة، وبين الإنسان ونفسه، وبين الإنسان والمجتمع. والعدالة أيضًا ليست حقًا للقوي فقط. ولكنها انسجام فعال بين الجميع.

• ١٠- نقـد:

والآن تُرى ما هو نقدنا لهذه الدولة المثالية التي يقترحها أفلاطون؟ هل هي عملية؟ وهل فيها أي عناصر يمكن أن نستفيد منها في عالم اليوم؟ وهل تحققت هذه الدولة أو وجدت في أي مكان ؟

نعم حدث ذلك، حيث حكم أوروبت نظامًا للحراس والحكام لمدة ١٠٠٠ سنة،

وهو شبيه بنظام أفلاطون. وجرت العادة على أن يقسم المجتمع إلى طبقات: العمال والجنود ورجال الدين. وقد احتكرت طبقة رجال الدين الحكم بالرغم من قلة عددها، وحكمت أعظم قارات العالم حكمًا مطلقًا. وصلت تلك الطبقة إلى هذا الاحتكار ليس عن طريق الانتخابات والتصويت، بل بسبب مواهبها في الإدارة والدين وميلهم للتفكير والتأمل، بالإضافة إلى نفوذ أفرادها في الحكومة والكنيسة. إلا أن هذه الطبقة تحررت من مسئوليات العائلة (كما أراد أفلاطون) وذلك في النصف الأخير من حكم هذه الطبقة لأوروبا.

• الحكام الكهنة:

في بعض الأحيان، فضل الحكام من الكهنة العزوف عن الزواج، وكان ذلك جزءًا من تكوينهم النفسي. وبذلك تحرروا من الرغبات الجسدية ومن القيود العائلية، مما زاد من خوف من يأثم منهم وسرعة اعترافه بالخطايا والذنوب.

وقد استمدت السياسة الكاثوليكية الكثير من (كذبة أفلاطون) واستمدت منها تعريفات للجنة والنار والأعراف والمطهر على النحو السائد في القرون الوسطى. وقد تأثروا بأفلاطون أيضًا في صياغة برامج تعليم الحساب والفلك والهندسة والموسيقى، وبذلك تمكنوا من حكم أوروبا بسهولة ودون استخدام للقوة. وقد قبلت أوروبا هذا الحكم طوعًا وقدمت الدعم المالي الكبير لمدة ألف عام تقريبًا. ولم يطالب أي شعب أوروبي المشاركة في الحكم، وركع التجار والجنود وغيرهم أمام عرش روما.

وفي نوفمبر من عام ١٩١٧م، وبعد الثورة أقام الحزب الشيوعي في روسيا مجتمعًا شبيهًا بما جاء في جمهورية أفلاطون لدرجة تدعو إلى التعجب. فقد كان أفراد الحزب الشيوعي أقلية تجمعها المعتقدات المشتركة، وتعيش باعتدال وبطريقة مقتصدة رغم المساحة الشاسعة التي تحكمها.

وهذه الأمثلة توضح أن خطة أفلاطون لإنشاء جمهورية مثالية تكون عملية إذا أُدخل عليها بعض التعديلات ووضعت بعض الشروط. وفي الحقيقة، أفلاطون نفسه استمد تلك الأفكار من سفراته المتعددة، حيث تأثر بحكومة رجال الدين في مصر القديمة. فقارن بين ذلك الشعب العظيم الذي تحكمه طبقة صغيرة من رجال الدين وبين نظام الحكم القائم في أثينا في تلك الفترة. حيث لاحظ أن مصر تعتبر دولة

أرقى وأرفع بكثير. وفي إيطاليا احتك بجماعة فيثاغورث وهي جماعة نباتية وشيوعية، وفي اسبارطه رأى طبقة قليلة الحجم تحكم، وهي تعيش عيشة مشتركة وخشنة. وهي طبقة لا يتم فيها الزواج إلا من أجل التناسل وتسمح للشجاع القوي بتعدد الزوجات. ولا شك أنه استمع هناك إلى "يوربيد" وهو ينادي بالاشتراك في الزوجات وتحرير العبيد وإحلال السلام على العالم بإقامة "الاتحاد الهيليني". كما أنه التقى أيضًا ببعض من طوروا الحركة الشيوعية وممن يسمون الآن بـ"اليساريين السقراطيين". وباختصار، فقد اعتمد أفلاطون في خطته تلك على حقائق عايشها بنفسه أثناء سفره الطويل.

• جمهورية أفلاطون لا تزال محل حوار:

ومع كل ما ذكرنا فلا تزال "جمهورية أفلاطون" تتلقى النقد والاعتراض والشك حتى يومنا هذا. وقد قال أرسطو عنها إن أفلاطون جاء فيها بأشياء عرفتها دول كثيرة منذ أزمنة بعيدة. وأنه من المفيد أن نقيم مجتمعًا مترابطًا أخويًا، لكن ذلك قد يؤدي إلى فتور الهمة، كما ينطبق هذا الكلام على اشتراكية الملكية لأنه يضعف الشعور بالمسئولية. حيث يقل اهتمام الأفراد بالملكية المشتركة، كما أنه يرى أن الشيوعية تؤدي إلى تواصل الناس ببعضهم باستمرار بشكل لا يمكن تحمله. حيث لن يكون هناك مجال للفردية أو الحرية في البيت أو العزلة أو الوحدة. وكثير من الناس لا يتحلى كثيرًا بفضيلة الصبر الشديد التي لا يقوى عليها إلا النُساك. وبمعنى أوضح، فهو يرى أن جمهورية أفلاطون مفرطة في المثالية، وفوق طاقة البشر. كما أن حكومة تلك الجمهورية ليست عملية ومفرطة في المثالية أيضًا.

• أرسطو ينتقد معلمه:

وهكذا نجد أن نقد أرسطو، وهو أعظم تلاميذ أفلاطون وأشدهم غيرة عليه، قد سار في نفس اتجاه معظم النقاد الذين جاءوا بعده. حيث رأى أن أفلاطون قلل من أهمية عُرف المجتمع وعاداته وتقاليده وأهمية الزواج، وكذلك تعدد الأزواج أو الزوجات. كما افترض عدم غيرة الرجل على امرأته وإمكانية مشاركته فيها. كما أهمل أيضًا أهمية غريزة الأمومة والأبوة، فمن يرضى بأن يؤخذ أطفاله منه ليعيشوا بعيدًا عنه دون أن يعرفوا من هم أبويهم. لقد ألغى بذلك نظام الأسرة وهو أعظم مصدر للتربية والأخلاق.

لكن هذه الانتقادات التي وجهت لأفلاطون ليست في محلها، حيث أن الفئة المضحية التي ستتنازل عن كثير من متع الحياة هي فئة الحكام والحراس فقط، وليس عامة الشعب. هؤلاء هم من سيعاني الحرمان من الأهل والحياة الرغدة والذهب والفضة والأملاك. سيعيش كل منهم مع الكثير من الأفراد الآخرين حياة تشبه حياة المعسكرات، كل الرجال أخوة وكل النساء أخوات.

أما أغلب أفراد الشعب، فسيعيشون حياتهم العادية المعتادة، وهم لهم كل الحقوق. فهم يشترون الأملاك ويعيشون حياة أسرية طبيعية ويتزوجون ويربون أبناءهم، ويحتفظون بزوجاتهم ولا يتشاركون في الزوجات. وهناك رد أيضًا على موضوع الأمومة، وهو أن الأمومة أمر يكتسب ويتزايد مع مرور الوقت وليس أمرًا مفاجئًا.

أما باقي ما وجه لأفلاطون وجمهوريته من نقد فهو حول أمور اقتصادية وليست نفسية. حيث قسم أفلاطون الحياة في المدينة إلى مدينة فقراء ومدينة أغنياء. ثم جعلها ثلاث مدن بعد ذلك. حيث استثنى الحكام والمساعدين من المنافسة في الثروات والمادة. ويرد هنا اعتراض أهم على أفلاطون وهو أنه جعل الحكام والحراس فوق القانون، فلا يوجد مجلس نواب يحاسبهم ويتحدث معهم باسم الشعب. وبذلك قد يتحول حكمهم إلى طغيان. لكن هذا الأمر مستبعد لأن سلطة الحكام سياسية وليست اقتصادية ومادية. بل إن العكس صحيح، حيث يستطيع العمال والتجار والمزارعون حجب المؤن والدعم عن الطبقة الحاكمة إن أساءوا، ثم تتحول السلطة إلى أيديهم.

لكن كيف يتمكن الحكام من الاحتفاظ بالسلطة السياسية والاقتصاد ليس في أيديهم؟ وقد يكون ذلك الاعتراض قاتلاً، لكن هناك رد وهو أن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية التي ركع أمامها ملوك أوروبا قامت على العقيدة وليس على الثروة. كما أن سلطة هذه الكنيسة بدأت في الانهيار عندما بدأ الصراع بينها وبين الواقع الاقتصادي الجديد.

ولا يبقى سوى أن نقول، إنه من الأفضل أن يدير شئون الدولة من تم إعدادهم خصيصًا لهذا الغرض، بدلاً من أن ينتقل تجار أو صناع أو غيرهم إلى مناصب سياسية فيتعثروا فيها لأنهم جاءوا بلا تدريب أو إعداد.

لكن وعلى الرغم من هذا النقد، يجب أن نحترم آراءه، فهو على حق؟ لأن هذا العالم بحاجة إلى أن يحكمه أفضل الرجال وأكثرهم حكمة. كما لابد لنا أن نكيف أفكاره لعصرنا الحالي. بل يجب أن نتعامل مع الديموقراطية كأمر واقع ولا يمكننا وضع قيود على حق التصويت كما أراد أفلاطون. لكن يمكننا وضع شروط لتولى المناصب، وبهذا نضمن ذلك المزيج بين الديموقراطية والأرستقراطية الذي يبدو أنه كان مقصد أفلاطون.

كما يجب علينا أن نقبل ما قاله أفلاطون بوجوب تدريب رجال السياسة بالمعنى الحديث، حيث يمكن أن يتم ذلك من خلال كليات العلوم السياسية في الجامعات. كما يمكننا أن ندعو الناخبين إلى اختيار الأصلح المناسب للمنصب من حيث مؤهلاته وخبراته. وقد لا يحتاج ذلك إلى أكثر من مجرد تعديل دستوري. وذلك حتى يتم حصر المناصب العليا للمؤهلين لها فقط وأن يتاح التعليم للرجال والنساء على حد سواء.

كما أنه من العدل أيضًا أن نقول إن أفلاطون كان يدرك أن دولته المثالية لم تظهر بعد. كما أنه يعترف بأن قيامها صعب التحقيق. لكنه يقول أن هناك ضرورة لرسم هذه الصورة المثالية في الأذهان. ويرى أن أهمية الإنسان تكون في قدرته على تصور عالم أفضل. وحتى مجرد تصورنا للصورة المثالية للدولة يفيدنا بجعلها هدفًا نريد تحقيقه.

لكن أفلاطون الشجاع المغامر لم يتراجع عندما سنحت له الفرصة لتحقيق خطته. فقد دعاه "ديونيسيوس" حاكم صقلية في عام ٣٨٧ قبل الميلاد إلى أن يأتي ليطبق نظريته ويحول دولته إلى دولة مثالية. وافق أفلاطون وذهب إلى هناك. لكن سرعان ما بدأ الصراع بين الرجلين عندما أدرك "ديونيسيوس" أن عليه أن يكون فيلسوفًا أو أن يترك الملك. فباع الملك أفلاطون في سوق العبيد إلا أن أحد تلاميذه (صديقه الأثيني "أنيسيرس") أنقذه بأن اشتراه وحرره. وقد رفض ذلك التلميذ أن يدفع له محبو أفلاطون ما دفعه من مال لشراء أفلاطون وتحريره. وقد يكون لتلك المحنة أثر في نفس أفلاطون مما دفعه للتحفظ أكثر فيما بعد وهذا واضح في كتابه الأخير "القوانين".

إلا أن أفلاطون عاش أعوامه الأخيرة في سعادة. فقد كان محاطًا بتلاميذه في أكاديميته. ينتقل من مجموعة إلى أخرى ويناقشهم ويبحث بعض الموضوعات معهم. وقد أحبهم وأحبوه وكان صديقًا لكل منهم بالإضافة إلى كونه مرشدهم وفيلسوفهم.

• وفاته:

دعا أحد الطلاب أفلاطون لحضور عقد قرانه، فذهب وهو في سن الثمانين وشارك الجميع في الفرحة. ثم جلس على كرسي في إحدى الزوايا الهادئة في قاعة الحفل ليستريح قليلاً. انتهى الحفل والفيلسوف الأعظم في مكانه، وفي الصباح حاولوا إيقاظه إلا أنه كان قد انتقل من النوم اليومي إلى النوم الأبدي. وسار كل أهل أثينا وراء نعشه إلى مثواه الأخير.